تحولات الوسط العقابي وايكولوجيا العقوبة

بن ادير فيصل (باث دكتوراه)
جامعة باتنة1
dr-bfaycal@hotmail.com

ملخص:

مثلت عصرنة وتحديث السجن مفارقة في مفاهيم العقاب وشكلت مطية لتحولات في الوسط العقابي، بل كانت بداية لخروج العقوبة السجنيّة عن ماهيتها وطبيعتها وهدفها الذي منهجته توجهات محلية تاريخية غير عالمية، وأسست لمفهوم عدم أهلية الجاني للعقاب بغير المفهوم المدني. وتم تحول الوسط العقابي إلى وسط يحمل مواصفات الوسط العادي بما فيه من إشكالات حياتية أدت إلى عدم صحية البيئة السجنية. هذا أفضى إلى طغيان جانب على اخر وإخلال بتوازنات أكدت دراسات حديثة عدم صحية تلك التحولات مؤداها عدم ايكولوجية العقوبة وتفضيل البيئة القديمة للسجن على البيئة المعصرنة،

الكلمات المفتاحية: الوسط العقابي، ايكولوجيا، العقوبة، صحية العقوبة

Abstract:

The modernization and the actualization of the carceral institution presents a paradox in concepts of punishment and form a ride to shifts in the carceral environment, more than that, they trigged the exit off the punishment concept from its purpose and what it is , they also took it away from its inner goal designed initially by local historical and none universal trends, on an other hand they gave birth to a concept of ineligibility offender punishable out of civil concept , thus the carceral institution was transformed into a normal like environment that holds its specifications such as healthy living witch led to an unhealthy carceral (environment) life.

This also led to the supremacy of a side on the other one and an unbalanced stat, latest and recent studies confirmed the unhealthiness of those transformations regarding the concept of ecology of the

ISSN. 2352-975X

punishment, preferring the old prison environment on then modernized one.

Key words: carceral environment; punishment; ecology; unhealthy punishment.

مقدمة

من أصدق المؤشرات على درجة الوعي الفكري واتجاه التغير الاجتماعي أن تكون المؤسسات التي تحتوي الأفراد تتساير في مسارات مشتركة، معبرة عن توافقها في الاتجاهات المطلوبة للأفراد، ومع ذلك لا يمكن التحقق من هذا إلا عن طريق نتائج البحوث العلمية والفكرية ؛ والتي لا تحدث التحول المطلوب في المجتمع بشكل سريع وفعال مواكبة لذلك التغير الحاصل، ما لم يكن هناك سعي حقيقي من السلطة نحو الأفضل، بحيث تقبل تلك النتائج وبل ترعاها.

والوسط العقابي من أقوى مؤشرات التغير الاجتماعي، ومن الدلالات الواقعية لتوجهات هذا الأخير، بل يعتبر مرآة عاكسة بطريقة غير خاطئة للمجتمع الخارجي باعتباره متداول معه في جميع مقتضيات الحياة والعيش، عن طريق العقوبة المحكوم بها أو سبب الوضع فيه.

والعقوبة التي تعبر عنه، تأخذ صورتها من وسطها ذاك بغض النظر عن صورها عبر التاريخ. وقد كان للإخلال بطبيعة العقاب والمساس به سواء في بيئته أو كيفية التنفيذ له بالعقوبة المحكوم بها تحت غطاءات، مثل الأنسنة، الإصلاح وإعادة التربية... أثرا على توازنات حيوية مرتبطة بجسم المحكوم عليه أو مكان تنفيذ عقوبته، هذا الأخير أدى إلى تدخل المفهوم الايكولوجي لكونه يسعى إلى الحفاظ على تفاعلات الإنسان مع بيئته. فالألم كان يطغى على عمق الجزاء في العقوبة، ولم يستطع المحكوم عليه استيعاب غير ذلك العمق الذي استحوذ على مدركاته ومحسوساته. ورغم التطور الهائل في فكر وإيديولوجيات وتوجّهات العقاب إلى الأخف، لم تغب فكرة المعاناة والألم ولكنه تميز بانتقاله لطابع غير ملموس أي غير جسدي، إلى طابع معنوي أو نفسي، وتجسد ذلك في عوامل أخرى ارتكزت على عدم الانتقاص من سلامة الجسد وفق

ISSN. 2352-975X

إصلاحات استهدفت ما يتعلق به من متطلبات كانت منتفية ؛ أو كما نظر لذلك "فوكو "Foucault "برؤيته في تدرّج مفهوم العقوبة من المرئي إلى اللامرئي ومن العلني إلى المخفي. وكان من نتائج ذلك أن قابله خلق بيئة أخرى هي ذاتها بشروط مخالفة للواقع السجني المعتاد ، وهي شروط معيشة مماثلة لمعيشة الحياة العادية بأحداث مرافقة لها تؤدي إلى مساس بكنه وطبيعة البيئة السجنية. فهل أن البيئة السجنية المرادفة للعقوبة السالبة للحرية ايكولوجية نتيجة للتحولات التي تعرضت لها ؟ وهل أن العقوبة صحية بذلك ؟ وعلى ذلك سيتم البحث فى هذا الطرح من خلال متغيري الدراسة في قسمين كما يلي:

القسم الأول: تحولات الوسط العقابي

الوسط العقابي يعبّر عن مظهر للتغيرات الاجتماعية تبعا للتحولات التي مسته والعاكسة لها ، وهو وسط وبيئة لها خصوصياتها مقابلة للوسط أو البيئة المعتادة مع انه أصبح يجاريها في نمط وشروط المعيشة نتيجة للتحولات،

أولا : الوسط العقابي

I -تطور مسارات السياسات السجنية لتطبيق العقوبة بعد أن أصبح السجن معمما خلال القرن التاسع عشر، ما فتئ في التطور وفقا للسياسات التي تعتمد على أفكار المنظرين والبحوث العلمية وتطور الظروف الحياتية والمدنية والسياسية. وانبثق عنها بروز مذاهب تدرجت رؤاها في تطبيق العقوبة حسب الغرض المحدد تحقيقه للمحبوس، كما يلي:

1 -المذاهب العلاجية هاته المذاهب تستعير مفاهيمها من النموذج الطبي، فالمحبوس هو مريض اجتماعي يستوجب معالجته، ومن الأدوات المفضلة لديها هي تفريد وتشخيص العقوبة، والتي تسمح بحسب النتائج المتوصل إليها من إخراج المحبوس قبل انتهاء عقوبته انطلاقا من الإفراج المشروط الذي ظهر في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر

ISSN. 2352-975X

2- مذاهب الدفاع الاجتماعي: هاته تطورت في بداية القرن العشرين، فالاهتمام لم يعد منصبا على المسؤولية ولكن على الخطورة، والهدف هو حماية المجتمع، والسجن يمكن حسب هاته المذاهب أن يكون مستعملا في اتجاهين متقابلين:

-الاتجاه الأول، في حالة كون الفرد خطيرا يجب أن يحيدّ أي يبعد ويحبس لمدة طويلة،

-والثاني، حال كون الفرد قليل الخطورة فهنا تزال عوامل الخطورة لديه ويمكن أن يفرج عنه بعد ذلك[1].

3 -مذهب القدر المستحق: وهذا المذهب ظهر في و.م.ا خلال السبعينات وهو يناقض المذاهب الكلاسيكية للعلاج وأيضا مذاهب الدفاع الاجتماعي. وهو يرفض أي شكل للتفريد والتشخيص، وأيضا أي شكل أو كيفية لتكييف العقوبة أثناء الحبس. فكل فعل مجرّم تقابله مدة حبس لا أكثر ولا اقل.والمحكوم عليه يحبس في ظروف عادية قدر الإمكان. ولا يعامل ولا ينظر إليه كمريض، ولا كشخص في حالة بدائية ومتخلفة اجتماعيا، ولكن كمواطن مسؤول والذي كان حرا في سلوكاته. [2]

4 -التطبيقات المرتبطة بالحبس الايجابي: هذا المذهب تطور في أمريكا وفي أوروبا الغربية، وهو في حقيقته ليس مذهبا وإنما يتعلق الأمر أكثر بمنطقيات تطبيقية ترتكز على التقليل من تدخلات الخارج، وتنصرف إلى ترقية وتأهيل دور العامل الداخلي المتمثل في موظفي المؤسسة العقابية، وبحسب تنظير أصحاب هذا الرأي فان تدخلات الاختصاصيين الآتية من الخارج تنتج آثارا سلبية ليس فقط على العاملين في السجن ولكن أيضا على المحبوسين، وبحسب هؤلاء دائما فان منطق العلاج يرتكز على بارتوناريا أي شراكة بين العاملين الحراس والمحبوسين، وانه يمكن تأطير الذين يحبسون لوضعية أفضل عن طريق تطوير الشراكة مع الحراس[3].

5 -المخططات المحيزة للمحبوس خلال العشرية الأخيرة للقرن العشرين ظهر مفهوم مشروع تسيير العقوبة في عدة دول أوروبية، بداية من بريطانيا. ففي فرنسا يطلق عليه مشروع تنفيذ العقوبة" "Projet d'Execution de la Peine " PEP "، وهو يقترح على المحبوسين أنماطا من مخططات مشوار أو تكوين قاعدة مهنية، والتي تمكن من

ISSN. 2352-975X

المشاركة ايجابيا في العقوبة المحكوم بها أفضل من تحملها سلبيا، وهاته ترتبط أكثر بالعقوبات غير الطويلة لكون هاته لا يمكن أن تنتج في أي مشروع أو تحفز بعد الخروج.(4)

II -مركزية العامل البشري كعنصر ضابط في الوسط العقابي: لم يبق اعتماد السياسات العقابية في إطار تنفيذ العقوبة المحكوم بها مبني على تحقيق أهداف عامة ذات طابع شمولي بل أصبح لها مراجع أخرى تتعلق أساسا بشاغلي الأمكنة هاته ؛ فقد فتحت الباب لجوانب أخرى ذات سياق مختلف ينشّط العقوبة ومرتبط خصوصا بالعامل البشري، من موظفي المؤسسات العقابية إلى نزلائه.(5)

1 -عامل مستخدمي السجون إن المعاملة وطريقة طرح الأعباء السجنية تخضع لمستخدمي السجون التي معهم أصبحت محل تكوين وسببا للدراسات والأبحاث، بل إنها مؤطرة قانونا بشروط ومستلزمات تأهيلية، ومفهوم العقوبة أصبح يأخذ توجهاته من فئات ومهام مستخدمي السجون الذين أيضا تم توظيف صفاتهم لتلك التوجهات التي تميز طبيعة العقوبة الحديثة، وهؤلاء هم: الموظفون، الحراس، المختصون.(6)

2 -عامل المحبوسين إن المحبوسين رغم أنهم كانوا سببا للتوجهات التي مست الوسط العقابي ولحقت العقوبة، إلا أنهم يعتبرون أيضا في صميم السياسات في تطبيق العقوبة، واهم ما يرتكز عليه هذا الجانب جعلها مشروطة بمفاهيم أخرى مرتبطة بعامل بشري وهو المحبوسين(7) وهذا كله من اجل الإصلاح حسب بعض التنظيرات، وتتمثل تلك التوجهات في: الرضا (الحياة السجنية)، الرفاهية (مماثلة الحياة العادية)، عولمة شروط تنفيذ العقوبة (الدليل السجني ومبادئ الحد الأدنى)

ثانيا: تحولات الوسط العقابي لقد كانت تحولات الوسط العقابي في أول وآخر المقام تمس كيفية تنفيذ العقوبة المحكوم بها؛ وهذا عن طريق البيئة الموصوفة بها، أو الشروط المرتبطة بها أي الإقامة في تلك البيئة، وكان من بدايات تلك التحولات شكل تلك البيئة ومضمونها، وهو ما يدل على الهندسة المعمارية ونماذجها، وهذا وفقا لمنطلقات متدرجة لها

ISSN. 2352-975X

I -الهندسة المعمارية ونماذجها إن الهندسة المعمارية ومما تتأسس عليه من فراغات وبيئات عمرانية، تعتبر أول واهم خطوة تعطي للوسط العقابي في المؤسسة السجنية خصائصا ومميزات، ويتعين التعرض لها وما يرتبط بها

1 -الهندسة المعمارية من المتفق عليه أن عمليات التصميم والتخطيط العمراني تهدف إلى تكوين بيئة مادية مبنية تتماشي مع متطلبات واحتياجات وسلوكيات المستخدمين لها؛وقد أوضحت الدراسات أن الفراغات العمرانية التي لا تشبع للمستخدمين متطلباتهم الاجتماعية والترفيهية تؤدى إلي تأثيرات سلبية بيئية، سلوكية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية... على هؤلاء الأفراد، مما قد يؤدي إلى تغيرات في السلوك الإنساني وتطور الأنشطة والاستعمالات. وبالمقابل يؤدي احترام تلك المتطلبات إلى تحقيق إنتاج سلوكات موافقة لما هو مخطط له.[8] ولكن العمران قد يكون خاصا في أوساط أخرى لاسيما عمران الوسط العقابي الذي له تنظيما يحكمه، يجب وضعه في الحسبان قبل وبعد التصميم، والذي أصبح في سيرورة تحولاته قريبا من عمران الحياة في عموميتها، وتقسيمات ذلك العمران بحسب انتمائه في الحياة وهذا بسبب تقارب أساليب المعيشة ونمط الحياة العام فيه - أي الوسط العقابي-[9] .

أ -قديما: كان السجن قديما مكان للحجز والانتقام من المجرمين، وبعدها أصبح مؤسسة أوجدت لمعاقبة وإعاقة المجرمين بتقييد حريتهم بدرجة كبيرة. وقد تم البحث في وضع نماذج لذلك لتحقيق الكثير من الأهداف وفي إطارها تنظيم نشاطات المحبوسين وحركاتهم، وحماية النظام المسيّر لمؤسسة السجن وأمن المقيمين والمشرفين فيه. ولذلك فان هندسة السجون كانت مهامها تحييد المحبوس والقضاء على جزء من تقديراته سواء الحركية أو الفكرية.[10]

ب -حديثا: أما الهندسة المعمارية في الوقت الحاضر فانه يصدق عليها التصور الحقوقي التنظيمي ؛ انالمهندسين الذين يقومون بتصور وهندسة سجون الغد يجدون أنفسهم في مأزق وإحراج بين اكراهات الأمن ورغبة العمل على إدخال جزء من الحرارة الإنسانية في السجون وكيف يمكن تحويل التسعة أمتار مربعة المستطيلة المقررة

ISSN. 2352-975X

لزنزانة إلى حجرة تشبه غرفة، وأين تكون جهة الحمام غير مرئية لباقي المحبوسين مع بقائها كذلك للحراس ؟ هاته هي الرباعية التي تقتضي الحل.[11] إن الهندسة المعمارية حديثا أصبحت تخضع لمعايير التوجهات الفكرية المعتمدة، ومنها مثلا قواعد الحد الأدنى لمعاملة السجناء، وأيضا تأرجحها بين خضوعها لهندسة البناء المدني أو الحضري وهندسة السجون خارج المدن وخضوعها للفضاءات الريفية المفتوحة. وبين هذا وذاك، فان الانتماء يلعب دورا في تبعية الهندسة لتنظيم المدن وإرادة دمج السجون في المجتمع من جهة، ولوضع السجون خارجها أي في الريف وتحقق الإبعاد الاجتماعي والجغرافي أين يكون عامل الأمن قويا في الهندسة. [12]

2 -نماذج الهندسة المعمارية

أ – قديما:

- **نموذج الحصن أو القلعة**: ويتعلق الأمر بأصل السجون الآتية من العصور الوسطى وسالفها ؛ ففي أوروبا كما في غيرها من الجهات الأخرى قبل القرن الثامن عشر؛ كان السجن معدا أكثر كمكان للحبس وانتظار الحكم وليس العقوبة، والحكام كانوا يودعون فيه الأشخاص الذين تحرجهم نشاطاتهم[13]، وأما أمكنة الاعتقال فكانت ذات وصف عسكري، حظائر، قصور محصّنة، أو ما يطلق عليه المنسيات أي أماكن ينسى فيها من هو فيها. نموذج المراقبة الشاملة أو البانوبتيك panoptique هو نوع من السجون قام بتصميمها الفيلسوف الإنكليزي والمنظر الاجتماعي جيريمي بنثام في عام 1785.

ومفهوم التصميم هو السماح بمراقب لمراقبة جميع السجناء دون أن يكون المسجونين قادرين على معرفة ما إذا كان يتم في الحال مشاهدتهم أم لا**[14]**. ويمكن ذكر كمثال لهذا النموذج سجن Western Penitentiary بـ Pittsburgh في 1826 وسجن Eastern Penitentiary بـ Philadelphie المنشأ بتاريخ 1829. [15]

- **النموذج الشعاعي:** هذا النموذج من الهندسة المعمارية كان موجودا ومعتادا إقامته في نهاية القرن التاسع عشر، وأول ظهوره جاء في و.م.أ، ثم تم اعتماده كشكل معمم في كل أوروبا، وهو نموذج مكون من النظام البنسلفاني للعزل في النهار والليل، ومبدأ

ISSN. 2352-975X

الحراسة فيه مركّز من شكل البانوبتيك panoptique أو المراقبة الشاملة، والشكل الهندسي فيه يخدم متطلبات الحراسة وشروطها. وقد ساد هذا النموذج في بلجيكا) Gand en Belgique) للفترة الممتدة من 1773إلى1867.[16]

-النموذج المربع: وهذا النموذج يرتكز على بنايات الزنزانات، الورشات، والنشاطات تحيط بفناءات داخلية ومن خلالها تتوزع في شكل مربعات. ورغم صعوبة الحراسة فيها فان هذا النموذج يسمح بالتفريق بين المحكوم عليهم حسب فئات معينة في الأجنحة. ويوجد نماذج لهذا النوع في فرنسا بمركز الحبس 1966 de Muret، وفي و.م.أ يوجد سجن Attica المنشأ بتاريخ 1937.[17]

-النموذج الخطي أو الطولي: كمرجع لهذا النموذج يوجد النظام الاوبرني، وهو سجن يقام في الطول ويمنح شروطا أمنية عالية وحركة سهلة. والعزل مطبق بدرجة قصوى، وغياب الرؤية المباشرة تخلق مخططا من المخططات الأكثر كارثية بنسبة منخفظة لعمليات الهروب وبنسبته العالية لعدد الانتحارات، ويوجد سجن بـ و.م.ا المعروف Sing-Sing المنشأ بتاريخ 1819.[18]

- نموذج الإشعاع المتمركز: هذا النوع من الهندسة يتكون من بنايات سداسية الشكل والتي تكون مرتبطة بمخرج مركزي، وعن طريق بنايات وسيطة أو سلالم، ويسمح بإقامة زنزانات على الجوانب وأماكن النشاطات في الوسط، وهناك ثلاثة حصون للحراسة تراقب الكل. وهناك تواجد لهذا النموذج في بلجيكا بـ Ghent المنشأ بتاريخ.1773 [19]

- النموذج المتوازي: هندسة هذا النوع تتمثل في سلسلة من البنايات متوازية ومتصلة الواحدة بالأخرى عن طريق ممر مركزي، وتكون فيه أمكنة الزنزانات مفصولة بواسطة الفناءات ؛ يمكّن هذا المخطط من تصنيف المحبوسين إلى فئات، وتم تطبيقه في سجن Fresnes بتاريخ 1898 وأيضا سجن Baumettes و,Poussin بـ Marseille وسجن New County بـ Philadelphie.[20]

- نموذج تجمع الوحدات: وهو نموذج لهندسة مفتوحة أين تكون البنايات متباعدة الواحدة عن الأخرى، وليس هناك شكل متماثل ولكن له صورة تكون مماثلة لتجمع

ISSN. 2352-975X

قرية، وله محور رئيسي مع سكنات صغيرة عادية، والتجمع السجني في Lyon بـ de Mettray المنشأ بتاريخ 1938 هو مثال واقعي للنموذج.[21]

ب -حديثا: ما يمكن ملاحظته في النماذج الحديثة لهندسة السجون المعمارية هو تميزها بخصائص حافظت على خصوصية المسك والوضع وخاصةالناحية الأمنية ولكنها اضافت:

-ناحية جمالية خلافا لنماذج للسجون القديمة المتصفة بالصامتة، فان الحديثة تدخلت فيها قيم جمالية مستعارة من تواجدها المدني أو الحضري ببيئة مفتوحة، [22]

-وناحية اجتماعية، بحيث أصبحت تفاعلية كما هي في الداخل هي كذلك في الخارج تبعا لخاصية تفاعل العمران والسلوك الإنساني.[23]

أما النماذج، فهي خلافا لسابقيها يمكن تقسيمها إلى:

1 -النماذج المرتبطة برغبة السجناء ففي بعض الدول الاسكندينافية ودول شمال ارو ربا ومنها دول السويد والنرويج والدنمارك، تم التوجه إلى إرضاء السجناء وتحسين نظرتهم لشروط الحياة للقضاء على نزعة الإجرام لديهم وفقا للأسباب المهيئة له عن طريق نموذج السجون المفتوحة.[24]

2 -النماذج المرتبطة بمفهوم الامتياز والتوجيه وعلى غرار ما يجري في بعض الدول الغربية تم استحداث نماذج لاماكن تعتبر سجونا بمفهوم حديث في بعض الدول العربية ومنها مثلا المملكة السعودية معتمدة على مفهوم الامتياز والتوجيه للسلوكيات المنتظرة وهذا بشروط منها قضاء مدة ثلاثة أشهر من العقوبة المحكوم بها ومثال تطبيقه في مدينة جدة بسجن "بريمان " في نموذج البيت العائلي ؛ وهي قامة من أفخم الاقامات في السجون، ومن هاته النماذج أيضا: البيت السعيد، العنبر المثالي

II- منطلقات تحولات الوسط العقابي:

1- حسب السيرورات الغائية لقد كان لنشأة السجون آفاق وتنظيرات من زمن لآخر حسب السياسات المنتهجة والمبادئ الفكرية القائمة وأيضا زاوية النظر في تقييم الجاني والفعل والعقوبة ومكانها، وكانت التصورات بشأنها متدرجة في توجيه غرض وهدف وعمق إقامتها

ISSN. 2352-975X

أ- السجن المثالي، أو Utopique كان من شان طرح الفكرة المتضمنة مبدأ المثالية أو المدينة الفاضلة المستدخلة في نظام السجون بروز محطات مقررة في مادة السجون تمثلت في نشأة السجن الحديث وهي تعبير عن قطيعة مع نموذج العقوبة في النظم السائدة في القرن 19 وقبله.[25]

ب -السجن الواقعي: وهو انتقال من المثالية التي كانت تهدف إلى وضع مؤسسة تقضي على الارتكاسات الموروثة، إلى واقعية تحكمها منطقيات لا يمكن تجاوزها أو البقاء دون إقامة اعتبار لها تمثلت في:

-منطقيات ذات خلفية اقتصادية، سياسية، ثقافية، وهاته اعتمدت أساسا على نقل السجن إلى أماكن تحقق أكثر الخلفيات التي يحكمها منطق السياسة والثقافة السائدة[26] .

-منطقيات التأسيس العمراني والأمني، وهي فرضتها التطورات خاصة في مجال حقوق الإنسان

ج -السجن الإقامة والمسكن: وبعد أن أصبح السجن واقعيا، تحول السجن لمكان إقامة ومعدا للسكن بمفهوم الشغل، فهناك عدة أصناف تشغل السجن وتقيم فيه وتؤمن السير الحسن له.[27]

2 -حسب السيرورات الفكرية من منظور تنظيمي بخلفيات نفسواجتماعية في المنطلقات الأولى لتراث وتطورات المجتمع الغربي، تقاسمت مجموعتين الأبحاث المتعلقة بالعالم السجني تعبّر كلا منها عن التحولات الموضوعية والشخصية لما يتعلق بالسجن، الأولى قامت بدراسة السجن كمجتمع، وأما الثانية فقد تناولته انطلاقا من المجتمع ومايتم إبداء الرأي حوله. في المجموعة الأولى يوجد محورين في الدراسات، الأول كان المحكوم عليه هو موضع التركيز في التحليل، وكل ما يتعلق به من تفاعلات مع الحراس أو موظفي السجن، وهذا كبداية في الثلاثينات. أما في بداية الستينات فقد تحول التركيز على بنيات التنظيم السجني والذي يهتم بتوزيع السلطات في المؤسسة ومن يعنيهم ذلك. وفي المجموعة الثانية وابتداء من سنة 1975 كان المحور الرئيسي يتعلق بمكان ومكانة السجن في المجتمع

ISSN. 2352-975X

أ -دراسة السجن كمجتمع:

-السجن تفاعلات وتكيف إن تكيف المحكوم عليه والمتواجد في الوسط العقابي أمر حتمي ولو بصورة وشكل مخالف لمفهوم التكيف، وهذا يعني أن السجن مجتمع يجب أن يقوم فيه المحكوم عليه كمنتسب اليه باكتساب مفاهيم أخرى مرتبطة به تستدخل تدريجيا كثقافة تحتية، وهو ما يعبر عن " التكيف المفروض." ولذلك فان العالم الامريكي الاجتماعي Donald Clemmer ادخل مفهوما آخر أطلق عليه "السجنية "، توصل إليه بعدما فصل عالم السجناء والعلاقات الاجتماعية داخل السجن. أما Gresham Sykes فقد استخدم نفس المفهوم، وهذا بعد دراسة لسان ولغة السجن توصل إلى وجود ثقافة تحتية أو فرعية سجنية. وفي سنة 1961 كوّن Erving Goffmanشبكات تفسير تتعلق بمجموع ما يسميه "المؤسسات الشمولية "، ويقترح مفهوم " التكيّف الذي ميّز فيه بين " التكيّفات الأولية " وهي التكيّفات التي يحاول المحبوسون بواسطتها احترام التعليمات واللوائح الخاصة بالمؤسسة، و" التكيّفات الثانوية " وهي المخارج التي تسمح عكس الأولى للمحبوسين لخلق فضاءات حرية واستقلالية بالتفافات خارج مراقبة المؤسسة. ثم أتى كلا من Pauline Morris وTerence وادمجا في تحليلاتهما الوضعية الخاصة بموظفي المؤسسة الذين يعانون من اكراهات التواجد العقابي، فالمسجونية أو السجنية لا تخص فقط المحبوسين. أما Mathiesen فذهبت إلى ناحية أخرى، وتتعلق بعلاقة المحبوسين فيما بينهم وكيف يندمجون وآلية ذلك، وانطلقت من وضعية المحبوس عند الدخول إلى الوسط العقابي وحالة ضعفه، وتوصلت إلى وضعية تقابل بين ضعف وضعية المحبوس وقوة التضامن بين المحبوسين.[28]

-السجن كمنظمة ومن زاوية أخرى تطورت دراسة السجن من خلال الأشخاص العاملين فيه والهياكل الخاصة به وسير المؤسسة وأبرزت التحولات التي تعرض لها الوسط العقابي، فقد أقام Glantz نمذجة تركيبية لتطور توزيع السلطة في السجن، وميز بين أربعة نماذج هي: -النموذج السلطوي، ويتمثل في المدير الذي يراقب كل السلطات، والنموذج الثاني برز بعد الحرب العالمية الثانية وهو المسمى النموذج الإداري

ISSN. 2352-975X

أو المكتبي القانوني، والذي يكون النفوذ فيه عبر مراقبة من طرف مصلحة السجون، وسلطة الحراس محددة في اطر إدارية إجبارية. أما النموذج الثالث فيوصف بالسلطات المقتسمة، وهنا يكون للمحبوسين جزء من السلطة أي هناك إقرار والمحبوسين.[29] وقد قام أيضا Stastny وTyrnauter بتمييز أربعة نماذج متتابعة والتي تتميز بإبراز تطور قوة مصادر السلطات في السجون وهي: -نموذج سجن المركز، نموذج سجن الإيداع، نموذج السجن العلاجي، النموذج التفاعلي.[30]

ب -**دراسة السجن في المجتمع:** ويتعلق الأمر هنا بآثار المجتمع على السجن وأيضا بآثار السجن على المجتمع، وهذا من خلال:

-السجن ككاشف للمجتمع ويمكن معرفة هذا المضمون من التحليلات المتمفصلة التي تقدم من المجتمع خارجيا وداخليا للسجن.والتي تثبت الإبعاد بمعانيه.[31] وتعنى أن ما يجري في السجن أو الوسط العقابي وما يشرع فيه ويبادر إليه، هو مرتبط ومركب على أساس ما تم تقريره وربطه انطلاقا من الخارج أي عن طريق من هم وراء السجن، ومن بين الذين أكدوا على هاته العلاقة توجد Antoinette Chauvenet، التي بيّنت كيف أن السجن هو وسيلة محاربة وآلية بواسطتها تصفي الدولة بطريقة نهائية أو مؤقتة أعداءها أو مناوئيها داخليا.[32]

-المجتمع كمؤشر على فشل مؤسسة السجن إن المحبوسين السابقين عند خروجهم من السجن، عموما يجدون أنفسهم أكثر حرمانا من الدخول إليه. ويكون المجتمع بموقفه محددا بطريقة غير مباشرة إمكانية العود. فبمعية ماضي سجني، فان العثور مثلا على عمل عموما ليس سهلا، ومع علاقات مكونة في السجن يكون المحبوس بين حدود محفوفة باحتمالات غير محدودة العواقب، وبذلك يكون العود عاكسا لمكانة السجن في المجتمع[33]، ويتبين من خلال ما سبق انتقال السجن من مكان مغمور إلى مكان ذو قيمة وتأثير في آليات سير المجتمع والدولة والعكس كذلك.

القسم الثاني: ايكولوجيا العقوبة

ISSN. 2352-975X

أولا: العقوبة

I -تعريف العقوبة والصورة الذهنية:

1 -تعريف العقوبة: العقوبة هي كل إجراء بحكم قضائي نهائي فيه معنى الجزاء يوقع قانونا على الجاني ويتضمن قدرا من الإيذاء أو الإيلام أو الردع أو الضغط أو الحرمان وهو إذن نوع من الجزاء[34].

2 -الصورة الذهنية للعقوبة مهما كانت المفاهيم المعطاة للعقوبة السجنية، فان الأكيد وفقا للتناولات العلمية في الدراسات أنها مرت بمراحل في التطورات التاريخية لها حسب الفلسفات والمبادئ المنظورة من خلالها، وأصبحت لها أهداف غير تلك التي كانت بحسب التناول الزمني الواقعة فيه دراسيا ؛ والأكيد أيضا، أن تلك التناولات (أي البحوث والدراسات لاسيما العربية) لم تنصف حقيقة العقوبة كمفهوم لفظي هو حق لها أن توصف به ؛ والأكيد أيضا أن العقوبة يمكن أن تكون عقوبة بحسب المدرك من طرف الموقع عليه ذلك الجزاء الموصوف بعقوبة جزائية أو سجنية ليكون المقصود واضحا بحسب الدراسة. إن العقوبة ما هي في الحقيقة إلا جزاء بوصف العصر المنتمية إليه أي أنها تأخذ كليتها وجزئياتها من ما هو راهن وهو ما يثبت جزءا من عمق العقوبة في الدراسة الحالية، وعلى ذلك تكون لها تصورات ذهنية تجسد عدة مفاهيم لها.

أ -المفهوم الواقعي: يمكن أن يكون بكل بساطة وضعية غير عادية ومن الوضعيات القصوى حسب "ريفوليي Rivolier "، وهو يجمع احد الوضعيات التالية[35]: الوضع في بيئة مغلقة، تحديد الحركة وفرض الاقامة، فرض واجبات على المحكوم عليه، الأكل والشرب والنوم وإجابة للنداء.

ب -وسيلة للسياحة البيئية في نزل بيئية السياحة البيئية تعني في مفهومها العام سياحة التجول في المناطق الطبيعية بغرض التنزه، والترفيه والاستجمام والعلاج.[36] والنزل البيئية كما عرفتها منظمة السياحة البيئية عام 1995: هي مكان للإقامة يعتمد على الممارسات البيئية السليمة، يقدم نوعية جديدة من نظم الاستهلاك بأشكال مبتكرة، ويعمل على تشجيع الإنتاج بحيث يحقق مجموعة واسعة المدى من

ISSN. 2352-975X

أهداف التنمية المستدامة على المستوى المحلي. من هذا المدخل أصبح الوسط العقابي بمقتضى العقوبة النافذة غطاء لسياحة لدى الذين يعرفون السجن أو الوسط العقابي. فالثقافة السجنية كانت وما زالت تعطي للمحكوم عليه مادة أولية للاستفادة من خدمات غير متوفرة ولا تتوفر لدى المحكوم عليه خارج هذا الوسط أو البيئة. فالسجن أصبح نزلا للمحكوم عليه وهو سياحة للمحكوم عليه بتغيير البيئة، من بيئة مفتوحة إلى بيئة مغلقة أي من حيث درجة الحركة والنشاط أو الانفتاح المحدد وغير المحدد للبيئات الأخرى.

ج -**المشروع والمخطط:** ما تتمتع به العقوبة السجنية اليوم يحقق بدرجة كبيرة مفهوم المشروع وهذا لأن المحكوم عليه له إمكانيات تفتح له أبوابا غير متاحة في الخارج أو البيئة المفتوحة، فهناك التكوين بجميع تخصصاته، وهناك الإشراف من جميع الكفاءات.[37]

II -الاشتراك في تحمل العقوبة:

لقد أصبحت العقوبة غير شخصية، وخلافا للمبدأ التي تخضع له بحكم أن منطوق حكمها أضحى مفرّق بفعل الإصلاحات التي أدخلت عوامل أخرى، وفاعلين آخرين في استهلاكها، جعلهم مصادر مشاركة في تحمل تنفيذها بآليات مختلفة

1 -آلياتها: ابرز تلك الآليات والتي تطغى على العقوبة هناك المساندة الاجتماعية ؛ ولقد اتفق فى تعريفها كل من كوهين(Cohen)، وسيم(syme) "بأنها تفاعل الفرد فى علاقاته مع الآخرين " وغنى عن البيان، فان المساندة في العقوبة هي تتمثل كما حددها هاوس House 1981 بأنها عملية تفاعلية تشرك فيها واحدة أو العديد من الأبعاد التالية:

1 -الاهتمام العاطفي: حب، صداقة، تقمص عاطفي - مساعدة مادية أو وسائلية: أموال أو خدمات - معلومة: تتعلق بالبيئة والمحيط - والتقدير معلومة تتعلق بتقدير الذات[38]

ISSN. 2352-975X

2 -مصادرها: هاته المصادر ناتجة عن الاتصال بالمحبوس الذي يتلقى المساندة بكيفيات مرتبطة بالعلاقة ونوعيتها وتكون من: المحامي، الأهل عن طريق الزيارات، الجمعيات الخيرية والحقوقية، موظفي السجن.

ثانيا: ايكولوجيا العقوبة تعريف الايكولوجيا:

مصطلح Ecology مشتق من كلمة Okologi وتعني علاقة الكائن الحي مع المكونات العضوية واللاعضوية في البيئة. وأصل الكلمة مشتقة من المقطع اليوناني Oikes والتي تعني بيت، وLogos التي تعني علم، وبذلك تكون كلمة ايكولوجي هي علم دراسة أماكن معيشة الكائنات الحية وكل ما يحيط بها أو علم المنزل.(39) ويبدو جليا أحقية السجن باعتباره منزلا للبعض ومكان إقامة للبعض الأخر، لان تتدخل فيه كلمة ولفظ ايكولوجيا وتثار هنا، وبالتالي يتعين تبيان ما له علاقة بها

مدخل الايكولوجيا للعقوبة: إن العقوبة منصبة على جسم الإنسان -المحكوم عليه - من باب تقييدها وإلزامها بأداء معين، وهذا ما يجعلها مرتبطة بصحة المحكوم عليه لما تثيره في نفسه من إشكالات ترتد كلها إلى هذا الجانب مهما كان مستواه ؛ فلقد أصبحت العقوبة تؤدي دورا آخر مرتبط بما هو مقرر في أدبيات المعيشة العادية، وبذلك قد أخرجت العقوبة من مدلولها المرتبط ببيئتها التي تم تغييرها كذلك بإفراغها من محتواها الدال على العقوبة المحكوم بها اقتضاء لحق عن طريق بناء سجون جديدة مقرونة بخلفيات جديدة غير تلك المرتبطة بنشأتها.(40) فهل أن العقوبة السجنية تحقق وتحترم ايكولوجيتها ؟

I -تأسيس العلاقة بين العقوبة والايكولوجيا:

أكدت دراسات أن عمال وموظفي المؤسسات العقابية، وشاغلي السجون من المحكوم عليهم يفضلون السجون القديمة من حيث نموذج البناء والهندسة المعمارية الخاصة بها، وشروطها القاسية على سجون معصرنة وحديثة البناء والمتوفرة على شروط عمل أو إقامة مريحة، ومن هاته دراسة" دافيد شيير" " David Scheer" بعنوان "مفارقة العصرنة السجنية" Le paradoxe de la modernisation carcérale".**(41)**

ISSN. 2352-975X

وهذا مؤشر على عدم التوافق النفسي وهو جانب مهم في الصحة باعتباره عنصر متفاعل والبيئة؛ ومما يؤسس لتلك العلاقة:

1 -التدخل في طبيعة وهدف البيئة السجنية

أ -انعدام سياق الطبيعية في العلاقة: فسياق الطبيعية في العلاقة بين المسجون ومحيطه وبيئته هو بعد غائب في التفكير العقابي والجزائي، في حال انه يكيف التوازن النفسي للسجين من قاعدة وأساس إعادة إدماجه الذي يعتبر مناقضا لها أي الإدماج. فايكولوجيا العقوبة يفترض فيها أن تقيم توازنا بين: توازن السجين المشجّع من محيطه، وتوازن العقوبات عن طريق إعادة صياغتها مطابقة لمكان احتضانها. (42) فالتدخل افقد مفهوم الطبيعية في العلاقة بين المحكوم عليه والبيئة، وافتراض كفاءة وفعالية البيئة تم الاستغناء عنهما كضرورة بيئية بمفهوم السجنية ؛ والحكم الجزائي بذلك لا يتناسق مع مفهوم منطوقه.

ب -تغيير حقيقة وهدف الوسط العقابي -البعد الحيوي للايكولوجيا -ويتجلى ذلك في:

-غلبة الجانب الإداري على حساب جانب المحبوس أو العامل الإنساني على عامل المفهوم السجني مثلا في النصوص التي تحكم وتسيّر إقامة المحكوم عليه وفترة تواجده بموجب الحكم الجزائي سواء على المستوى العالمي أو المحلي، بها جانبا كبيرا مخصص لذلك، وأصبح في الجانب التنظيمي غالبا نظرا لما يتطلبه من مواءمة البيئة له وهذا عن طريق التغيير لها.

-سيطرة ثقافة التحكم والمراقبة ؛ مع أن التحكم والمراقبة يعتبران من متطلبات المؤسسة أو البيئة السجنية إلا أنهما أصبحا طابعا ووسيلة في سيرورة تغيير هدف الوسط العقابي فلم تعد العقوبة تساوي الكم ولكن تساوي الكيف، فالوسط العقابي مسخّر لكيفية تنفيذ العقوبة وهذا يقتضي المساس به.(43)

2 -عدم التفاعل المتبادل بين السجين وكيفية تنفيذ العقوبة السجنية: إن هذا المظهر يتمثل في فقدان عنصر مهم جدا وهو العمق العلائقي في العقاب، بحيث أن تثبيت المحكوم عليه وتجريده من سبب التواجد العقابي أدى إلى عدم صحية التواجد

ISSN. 2352-975X

أي عدم علاقته بمكان التواجد، بل إن العقوبة تنفي هذا المظهر العلائقي الذي أصبح غير صحي لعدم إمكان إقامة علاقة وسببية للجسم المسجون ؛ ومن ثمة فإنها غير ايكولوجية.(44)

II -نتائج غياب التفاعل بين البيئة والعقوبة والمحبوس وأسبابه:

1 -النتائج: من منطلق التأكيدات السابقة، فان عدم الصحية تعتبر النتيجة التي تنصرف للعقوبة وبيئتها وتلحق المحبوس تبعا لها، وخدمات العقوبة أصبحت تدخل في نظام الإدارة الجيدة ولا سيما التعديلات المتتالية والمتلاحقة في تحسين البيئة وامتيازاتها. وعدم الصحية مفهوم له تنظير كبير وهو كنتيجة مرجعية يتجلى من خلال:. اختلال التوازن البيئي للوسط العقابي بفعل التحسينات والتحديثات المتجاوزة لحد المقبول عقابيا(45) -تكييف العقوبة على أساس معايير ضاغطة مثل كثافة الالتزامات وصرامة التنظيم - مستوى رفاه عاكس لأوجه نمط الحياة اليومية وما فيها من ضغوطات حياتية

2 -الأسباب:

أ -الإكراه البيئي أي إدراك الضغط: إن حذف وسلب الحرية دون عقوبة منتظرة، وإخضاع المحكوم عليه لبيئة مصطنعة، وإحاطتها بتنظيم يتميز بالتعقيد والنمطية والصرامة يحقق إكراها ضمن بيئة استثنائية، وهو ما يجعل الضغط مدركا وفق ما جاء به "ليفانشتاين ومن ومعه "، ومن ذلك فان صحة المحكوم عليه تصبح مؤطرة ومنشطة بضغط نفسي سجني.(46)

ب -عدم تحييد العقوبة: إن التدخلات المتكررة والمتعددة في تغيير مفهوم العقوبة بإشراكها مع محددي مفهومها جعلها غير حيادية، بمعنى أنها لا تأخذ مفهومها من طبيعتها وحقيقتها ولكن من مفهوم من يوجهها إلى تحقيق أهدافه، وبالتالي فهي من جانب هذا، وليس في إطارها أي أنها غير موضوعية، فإذا كان المتدخل فيها يخضع لمتغيرات غير جديرة، فإنها تصبح غير حيادية ويؤدي ذلك إلى مرضيتها.

ج -التفاعلات السلبية: بالعلاقة مع الصحة النفسية ظهر مفهوما في البناءات الاجتماعية يتمثل في"بالتفاعلات السلبية " التي تعتبر مصدرا للضغط النفسي، والذي

ISSN. 2352-975X

تؤدي آثاره السلوكية والفيزيولوجية إلى الزيادة من درجة "خطر المرض "، ولا يمكن إلغاء هذا الجانب في الوسط العقابي، لكون هذا المفهوم يضع محل الاهتمام وجود الصراعات وعدم الرضا في العلاقات الاجتماعية بالارتباط مع العزلة الاجتماعية والوحدة خاصة النفسية[47].

خاتمة:

ربما سؤال يطرح نفسه كإجابة لمتغيري الدراسة وهو لماذية العقوبة وأبعادها، فهناك بعدا نفسيا علاجيا توازنيا يجيب على ما وصل إليه اجتهاد العقوبة ومحلها. فالعقوبة تساوي ماذا، فان تم تغيير مفهومها وتعديل بيئتها دون مراعاة قواعدها ومتطلباتها فهي لا تساوي شيئا ولا يمكن دعوتها كذلك. فحذف عنصر من تكوينات الجسم يفضي إلى اعتلال صحته وكذلك حذف بعد للعقوبة يؤدي إلى اعتلال الفرد لان كيانه ينتظر تلك العقوبة وليس تخليصه منها تحت هذا اللواء أو غيره، ولان تغييرها دون مراعاة أطرافها يجعلها غير صحية وتعتبر غير ايكولوجية، والكل يقتضي إعادة النظر فيه.

الهوامش:

(1)- مصطفى العوجي، دروس في العلم الجنائي- الجزء الاول، مؤسسة نوفل، بيروت، 1985، ص 58

(2)- Tournier, P-V, Dialectique carcérale: quand la prison s'ouvre et résiste au changement, Paris, L'Harmattan criminologie, 2012 p. 38

(3)- Tournier,op.cit. p. 40

(4)-Tournier,op.cit. p. 42

(5)-Chauvenet A, Rambourg C, De quelques observations sur la mise en oeuvre des règles pénitentiaires européennes, Agen, ENAP, 2010 p. 38

(6)-Philippe, Combessie, Les fonctions sociales de l'enfermement carceral: constats hypotheses, projets de recherche .Universite Paris VIII, 2003, p.62

(7)-Rosnet.Elisabeth, l'adaptation psychologiqueau stress dans les situations extremes, Université Charles de Gaulle - Lille 3,1999, p 11

(8)- باهر إسماعيل حلمي فرحات، العلاقة التبادلية بين السلوك الإنساني والبيئة المادية في الفراغاتالعمرانية، جامعة عين شمس، 1999، ص4.

(9)- Rivolier. J, L'homme stressé, Paris: Presses Universitaires de France (PUF) , 1989, p. 2

(10)- Rita, Baroud, FINAL- Prison final, université St.Joseph.Beyrouth, 1999, p32

ISSN. 2352-975X

(11)- Goubet, Maud, LA SECURITE EN PRISON session, lille, 2002, p 11
(12)- Philippe, Combessie, Prison des villes et campagnes, Editions La Découverte, Paris, Collection Repères, 1998, p 26
(13)- Rita, op.cit.p33
(14)- Thomas OUARD Espace de vie – Espace de détention.La cellule. ECOLE D'ARCHITECTURE DE NANTES 2005 p 26
(15)- Thomas op.cit.p28
(16)- Rita,op.cit.p39
(17)- Rita,op.cit.p41
(18)- Rita,op.cit.p44
(19)- Rita,op.cit.p46
(20)- Rita,op.cit.p48
(21)- Rita,op.cit.p51
(22)- Paul-Roger Gontard, L'utilisation européenne des prisons ouvertes L'exemple de la France. UNIVERSITE D'AVIGNON ET DES PAYS VAUCLUS, 2014, p.54
(23)- باهر إسماعيل حلمي فرحات، المرجع السابق، ص 15
(24)- Gontard, op.cit. p. 58
(25)- Cécile, Rambourg et Olivier, Razac "L'architecture carcérale: les mots et les murs "Synthèse des interventions (Enseignants-chercheurs au CIRAP N° 10 Février 2011
(26)- Cécile et Olivier.op.cit
(27)- Cécile et Olivier.op.cit
(28)- Tournier, op.cit. p. 48
(29)- Lemire. G, Anatomie de la Prison, Montréal, Les Presses de l'université de Montréal, 1990, p 18
(30)- Stastny. C.& Tyrnauer. G, Who rules the joint? Londres, Lexington Books, 1982, p. 95
(31)- Philippe, Combessie, 2003, op.cit. p88 .
(32)- Chauvenet. A. , Privation de liberté et violence: le despotisme ordinaire en prison, Déviance et Société, vol 30. no 3. 2006. , p. 373-388
(33)- Harvey,J, Young Men in Prison: Surviving and Adapting to Life Inside,Willian, UK , 2007, p 78
(34)-خليل، احمد ضياء، الجزاء الجنائي بين العقوبة والتدبير، القاهرة، دار النهضة، 1994 ص 14
(35)- Rivolier.op.cit. p. 11
(36)- Bottrill, C., & Pearce, D. Ecotourism: Towards a key elements ,approach to operationalising the concept. Journal of Sustainabl tourism, 3(1), 1995, 45.54
(37)- Philippe, Combessie, 2003,op.cit. p91 .
(38)- Cohen, S., & Wills, T. A. Stress, social support, and the buffering hypothesis Psychological Bulletin, 98,. 1985 p113 .

ISSN. 2352-975X

(39)- حسان، على محاسنة، البيئة والصحة العامة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2002،ص 17

(40)- David Scheer, David Tieleman, L'architecture carcérale, Journée de réflexion: «Des (nouvelles) prisons. Et après ? », ULB, 15 mars 2014

(41)- David Scheer, Le paradoxe de la modernisation carcérale,2012 . p. 58

(42)- David. David,op.cit

(43)- Foucault Michel, Surveiller et punir, éditions Gallimard, Paris ,1975

(44)- Cohen, S, & Wills, T. A,ibid. p188 .

(45)- David Scheer, op.cit. p73 .

(46)- Claudon R., Masclet G. , Le stress, principe actif de la peine de prison moderne , Psychologie du travail et des organisations (septembre 2005 université Charles-de-Gaulle Lille-III, Volume 11, numéro 3 pages 165-189

(47)- Cohen, S, & Wills,T. A, ibid. p.208

ISSN. 2352-975X